الفصل التاسع:

غادرنا في اليوم التالي في ساعة مبكرة، ولكن أهالي حمص نهضوا مبكرين ليتفرجوا علينا ونحن نخرج، ولم يكن هناك حل سوى التصميم على تحملهم.. ولم يكن أبعث على التسلية من استطاعتي المحافظة على هدوئي الظاهري، بعد ربع ساعة كنا نعبر بوابة طرابلس والبناء الروماني الآجري.

وفيما عدا منظر الأطفال الذي أصبح أبعد ما يكون فقد اجتاحني سلام الصباح الجميل، والتفت لأتعرف على المرافقين الذين أرسلهم القائم مقام معي، كانوا أربعة اثنان منهم أحرار واثنان مقيدان، كان الأوليان شرطيان كرديان، كان أحدهما مكلَّفاً بأن يدلّني على طريق قلعة الحصن، والآخر من أجل حراسة الاثنين الآخرين، وهما سجينان قَبض عليهما القائم مقام قبل بضعة أيام.

وقد انتظر حتى وجد مناسبة ـ مثل تلك التي توفرها رحلتي ـ من أجل إرسالهما إلى قلعة في جبل النصيرية، ومن ثم إلى السجن الكبير في طرابلس. كانا يرتديان ثياباً قطنية رثة بالية، وقد قُيدا إلى بعضهما يداً بيد، وبينما كانا يسيران معاً بشجاعة عبر الغبار والوحل، قلت كلمة تعبر عن الشفقة، فَردّا بأنهما يرجوان الله أن يطيل عمري.

أما بالنسبة لهما فإنها إرادة سيدهما السلطان التي قضت أن يسيرا يرسفان بقيودهما على القدمين، وتدخّل أحد الكرديين موضحاً أنهما فارّان من جيش السلطان. الله يجازيهما على فعلتهما النكرة. وأكثر من ذلك إنهما

إسماعيليان من السلمية. وهما يعبدان إلاهاً غريباً يعيش في الهند، ويقول بعض الناس: إن هذا الإله امرأة، وهم يعبدونها لهذا السبب، وفي كل سنة ترسل بعثة إلى تلك المدينة لتجمع لها الأموال المستحقة، وحتى أفقر الإسماعيليين عليه أن يدفع لها ولو قروشاً قليلة. وبعد فهما يدّعيان أنهما مسلمان.

من يعرف حقيقة معتقدهما؟

تكلم يا خضر وقل ما هو معتقدك؟

فأجاب السجين بتصميم: «نحن إسلام».

وقدّمتُ إليّ كلمات الجندي مدخلاً أستطيع أن ألج من خلاله عندما حانت الفرصة. واقترب مني السجينان السيئا الحظ وأصبحا بجانب حصاني وهمس أحدهما:

«يا سيدة.. يا سيدة، هل سبق ورحلتِ إلى الهند؟»

قلت: «نعم».

«الله ينعم عليكِ! هل سمعتِ هناك عن ملك عظيم يقال له الملك محمد؟».

ومرة أخرى كنت قادرة على الإجابة بالإيجاب، وأن أضيف بأنني أعرفه وقد تحادثت معه. وذلك أن ملكهم محمد لم يكن إلا زميلي ال «آغا خان». كان السجينان يمثلان بفخر عقيدة قديمة محترمة أنشأها الذي كان يطلق عليه اسم شيخ الجبل، وهم الممثلون المتواضعون للطائفة المفزعة وربما المؤذية التي يطلق عليها اسم طائفة الحشاشين.

وأمسك خضر رِكاب فرسي بيده الحرة وقال بحماس: أليس ملكاً عظيماً؟.

ولكني أجبت بحذر لأن آغا خان هو رجل يشبه ملكاً كبيراً من بعض النواحي لنقل إنه غني جداً.

وقد كان من الصعب أن يوضح الإنسان لأتباعه بالضبط ما ذاك الرجل المصقول الكريم المحتد في هذا العالم، والذي كنت قد قابلته أخيراً في لندن على مأدبة عشاء، والذي أعطاني نادي مالبورو كعنوان له. إن هذه الأمور إذا استطاعوا أن يفهموها لن تصدمهم فآغا خان قانون بحد ذاته، وإذا اختار أن يطلق لشهواته العنان أبعد كثيراً مما تسمح به حفلة عشاء، فإن عمله هذا سوف يقدس من خلال الحقيقة المجردة بأنها إرادته. لقد كان أبوه يرسل رسائل إلى جبرائيل من أجل أن يؤمّن لأتباعه مكاناً مناسباً في الجنة، ولكن الابن بثقافته الإنكليزية وحميمية انسجامه مع الثقافة الغربية قد أقلع عن ممارسة هذا الامتياز على الرغم من أنه مازال بنظر أتباعه ممسكاً بمفاتيح السماء، وهم يعبّرون عن إيمانهم به بطريقة مادية، وذلك بالتبرع بمبالغ كبيرة من المال تصل إلى عشرة آلاف ليرة إنكليزية ذهبية في العام تجبى من كل أتباعه في آسيا وأفريقيا[1].

وسرنا حوالي ساعة بين البساتين، وقابلنا مجموعة من البدو الرزيي الهيئة يمشون متمهلين باتجاه حمص، يحملون على حميرهم الحليب والسمن إلى السوق، ثم وصلنا إلى السهل الواقع بعد العاصي حيث موطن هؤلاء البدو،

(١) إن ما تقوله المؤلفة على جانب كبير من الصحة، وقد سألت أحد أصدقائي من الأساتذة الذين لا يزالون يؤمنون بالمذهب الإسماعيلي عن تفسيره لسلوك آغا خان وابنه علي الذي دفن عندما مات في سلمية، حيث كان هذا الأخير يعيش حياة الأمراء الأوربيين بكل ما تمثله من حرية جنسية ولهو، والذي تزوج من ريتا هايوارت الممثلة المعروفة، فقال هذا الصديق: «إن هذه أعمال جسده، أما روحه فهي طاهرة». وأعترفُ أنني لم أستطع أن أفهم هذا الفصل بين الروح والجسد. (المترجم)

كان منظر السهل مألوفاً، وهو غير متباين عن منطقة هضاب جبل الدروز، ويشبه سهول حوران بكونه مغطى بالحجارة البركانية، ويشكل مقلع حجارة فسيح بالنسبة لحمص.

فكل الحجارة التي تستعمل في البناء تنقل على ظهر الحمير من هذا السهل، ويبلغ ثمن حمل الحجارة متليكاً في المدينة. (والمتليك الآن عملة معدنية ذات قيمة متدنية جداً، وليس لها نظير في أوربا) والرجل الذي لديه مجموعة من الحمير للنقل يستطيع أن يربح عشرة قروش في اليوم.

كل العرب الذين يقطنون وعر حمص من جنس محتقر؛ بسبب الخدمات التي يؤدونها لأهل المدينة، ويجب أن تلاحظ أنه لا يوجد بدوي يحترم نفسه يقبل أن يعيل نفسه من خلال بيع اللبن، أو أي شيء آخر سوى القتال. ولكن في الصيف تأتي عشيرة الحسنة الضخمة لتقضي بضعة شهور هناك، وكذلك بعض بطون عنزة التي تأتي بإبلها لترعى بقايا الحصيد، وهذه القبائل الكبيرة تشبه كثيراً سمك السلمون الذي يأتي من البحار البعيدة متأخراً ولا يقدّم إلا قليلاً من اللحم للمقلاة[1].

عندما عبرنا السهل في آذار كان لا يزال هناك الكثير من الماء الراكد في الحومات هنا وهناك، والعشب والزهور نمت بين الحجارة، وعندما كنا نتقدم باتجاه الغرب فوق أرض كانت ترتفع تدريجياً باتجاه الهضاب أتينا إلى منطقة كانت أشبه بحديقة رائعة من الزهور؛ مكاحل حدقية شاحبة رفعت أجراسها

(١) الحسنة فرع من قبيلة عنزة الكبيرة وهي شبه مستوطنة في بادية حمص منذ القرن السابع عشر. حيث جاءت إلى سوريا من نجد أربع قبائل كبيرة تنتمي إلى عنزة، وهي الحسنة التي اختارت بادية حمص، والرولة التي اختارت بوادي سوريا الجنوبية، والإسبعة التي اختارت بوادي حماة، والفدعان التي اختارت بوادي حلب والرقة من الجهة الشمالية. (المترجم)

المتعنقدة فوق كتل الحجارة البركانية، السوسن وشقائق النعمان وعشبة الصقر والخربق الأرجواني الجميل تناثرت منقطة العشب، كل هبات الربيع السوري السخية كانت موجودة تحت أقدامنا السعيدة.

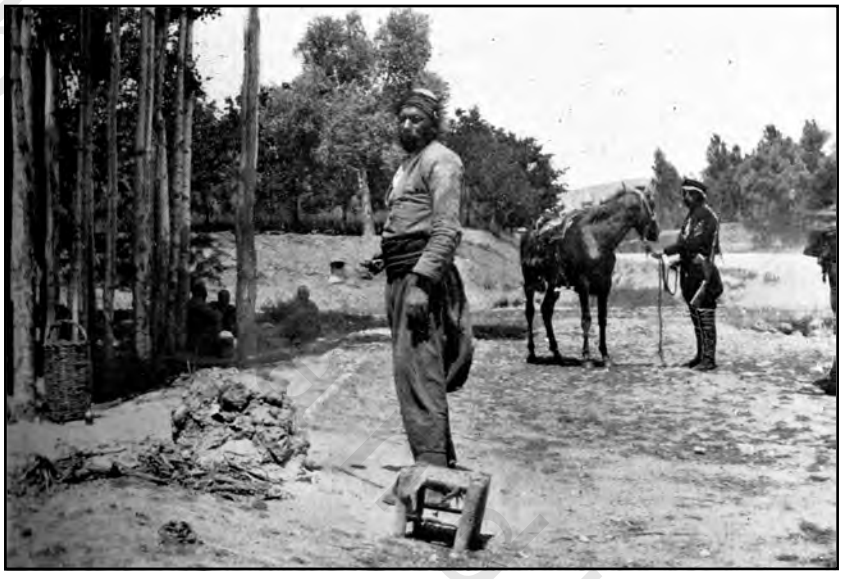

٩٦ ـ قهوة بجانب الطريق

وسرنا في الساعات الخمس الأولى متبعين طريق العربات الذي يقود إلى طرابلس، مارّين بالخان الذي يحدد المرحلة النهائية قبل مدينة حمص، وخط الحدود بين ولاية دمشق وبيروت. ثم انعطفنا يميناً ودخلنا ممراً خاصاً بالجياد فوق أرض متموجة العشب مزروعة جزئياً ومليئة بالزهور أكثر مما هو في العادة على حواف الطريق؛ شقائق النعمان المشرب بالأبيض والأرجواني والسوسن الأزرق متعنقداً بجانب الطريق والزعفران الأصفر على حواف الجدول.

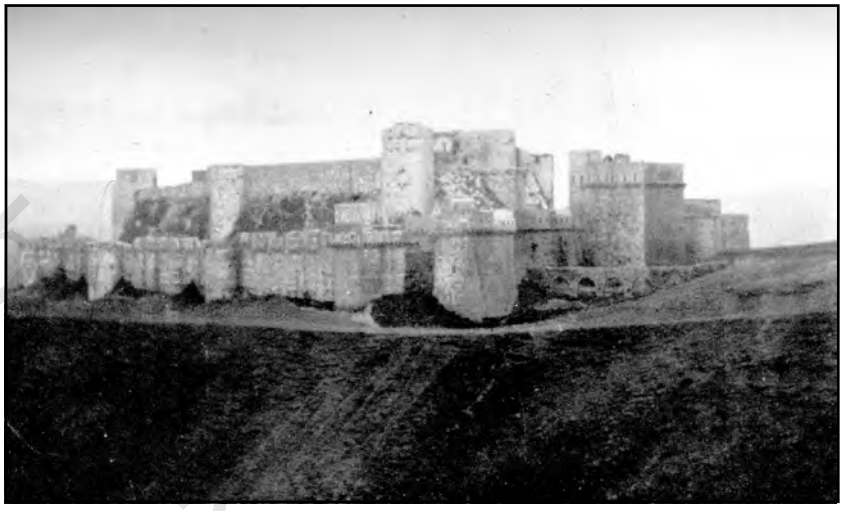

٩٧ ـ قلعة الحصن

وبالنسبة للعيون التي أتت حديثاً من جنوب سوريا واعتادت على رؤية الأعشاب هناك، فإن العشب هنا كان أكثر روعة من الزهور. لقد ارتدتْ أعلى قمم جبال النصيرية بُسطاً من الأعشاب الخضراء لا يستطيع أن ينافسها فيه أي منحدر في جبال اليهودية والسامرة في فلسطين. وعبرنا جسراً صغيراً مرتفعاً يقع في طريقنا، ثم هبطنا نحو قرية كردية مكون نصفها من خيام البدو والنصف الآخر من سور طيني، ويجب أن يكون قد مضى على سكانها زمن طويل في سوريا؛ لأنهم نسوا لغتهم الأصلية ولا يتحدثون إلا العربية بجرس خاص يشبه نطق الشرطيين الكرديين، والذي يتميز به الأكراد.

وبعد القرية يمتد سهل البقيعة بعرض ثلاثة أميال حتى منحدرات كتف جبال النصيرية، ومن أعلى قمة في هذه الجبال تطل علينا قلعة الحصن الصليبية العظيمة التي هي هدف رحلتنا، كانت الشمس تنير بروجها، ولكن سحابة سوداء كانت تزحف من خلفها، كنا نسمع صوت الرعد مدمدماً على

الهضاب ونرى البرق وهو يمزق غلالة الغيوم خلف الحصن، كان الطريق المباشر عبر سهل البقيعة متعذر الاجتياز على الخيول؛ بسبب طوفان الوحول التي كانت عميقة جداً، وكما يقول القرويون: لطمر البغل مع حمله.

وهكذا انعطفنا على كره إلى اليمين إلى حواف سفوح الهضاب، وقبل أن نذهب بعيداً قابلنا خيالان قد أُرسلا للترحيب بنا من قبل قائم مقام قلعة الحصن، وبينما كانا يلتحقان بركْبنا خفت العاصفة، وغطتنا بغلالة من المطر، ووصلنا سفح الهضبة وقد تلوثنا بالوحل وتبللنا بالمطر حوالي الساعة الخامسة. وهنا تركتُ القافلة لتسير على الطريق وتسلقت الهضبة مع أحد خيالة القائم مقام عبر مسلك منحدر ضيق خاص بالخيالة يقود مباشرة إلى قمة الهضبة.

وهكذا وصلنا عند غياب الشمس البرج المعتم ومررنا عبر بوابة عربية رائعة إلى داخل الممر المقبب الذي بني فوق درج ملتوٍ، كان داخله مثل الليل تقريباً، وسمحت فتحات الرمي القليلة للغسق الرمادي بالدخول من الخارج مقدمة أبلغ اعتذار لضوء النهار، وكنا أثناء سيرنا نمر بين حين وآخر على بوابات تقود إلى كهوف معتمة، كان الدرج الحجري خفيفَ الارتفاع وعريضاً، ولكن كثيراً من حجارته مكسرة.

وتعثرت الخيول وقعقعت سنابكها، بينما كنا نصعد أعلى فأعلى منعطفين عبر زاوية إثر زاوية ومارين تحت بوابة إثر بوابة حتى وصلنا في النهاية إلى الساحة المكشوفة في وسط الحصن، وأحسستُ كما لو أنني كنت أركب مع أحد فرسان الملكة، ونصف متوقعة أن أرى الكتابة على الأقواس تقول: «تشجعي.. تشجعي.. ولكن لا تكوني متهورة». ولكن لم يكن هناك ساحر في

قلب الحصن، لا شيء ماعدا جمعاً من الفلاحين يتطاولون بأعناقهم لرؤيتنا، والقائم مقام يبتسم بود، معلناً أنه لم يكن ليقبل بالتفكير بأن يدعني أنصب مخيمي في مثل هذه الليلة العاصفة وقد جهز لي مأوى في البرج.

قائم مقام قلعة الحصن رجل متميز بالأدب، كان اسمه عبد الحميد بك رفيعة زاده، وقد جاءت أسرته من مصر حيث ما يزال عدد من أبناء عمومته يعيش هناك، كان يسكن في أعلى برج في الحصن حيث قد جهز هناك غرفة للضيوف واسعة جداً، جهزها بالبُسُط وبأريكة وسرير له أربعة أعمدة وخزانة ثياب من خشب نفيس، بابها مزود بمرآة قد تكسر زجاجها إلى قطع صغيرة أثناء نقلها على الجمل من طرابلس إلى درجه أنه كان من المستحيل على الإنسان أن يرى أصغر زاوية من وجهه من خلالها.

كنت مبللة حتى الأعماق، ولكن واجبات اللياقة الاجتماعية يجب أن تراعى، وقد حتموا علينا الجلوس على الأريكة، وتبادل بعض العبارات المهذبة بينما كنا نتناول كؤوس شاي خفيف. كان مضيفي مشغول البال بوضوح بالنسبة لموضوع المحادثة ـ لسبب معقول كما استنتجت في النتيجة ـ ولكن مجرد أن سمع إجابتي على تحيته الأولى تنفس الصعداء وهتف: «الحمد لله.. سعادتك تتكلمين اللغة العربية، كنا خائفين بأننا لن نستطيع التفاهم معك، وقد دعوتُ مسبقا سيدة سورية تتكلم الإنكليزية لتقضي عندنا المساء من أجل الترجمة فيما بيننا». وقضينا ساعة في حديث متقطع بينما كانت الرطوبة تنفذ أكثر فأكثر في معطفي وتنورتي. ولم ينهض القائم مقام ويستأذن بالانصراف قائلاً إنه سوف يتركني لأرتاح إلا بعد وقت طويل من وصول البغال وإنزال أحمالها.

والحقيقة أننا سرنا اليوم لمدة طويلة، وقد أمضت البغال إحدى عشرة ساعة حتى وصلت إلى قلعة الحصن، وقد كان لدي الوقت الكافي لأبدل ثيابي المرطبة قبل أن أسمع قرعاً لطيفاً على باب غرفتي الداخلية معلناً وجود نساء من المنطقة، وفتحت الباب وأذنت لمدبرة المنزل وزوجة القائم مقام وسيدة متكلفة حيتني بالإنكليزية بلهجة منمقة جداً، كان اسم المرأة الست فريدة وهي مسيحية متزوجة من مساح الأراضي الحكومية الذي كان مسيحياً هو الآخر.

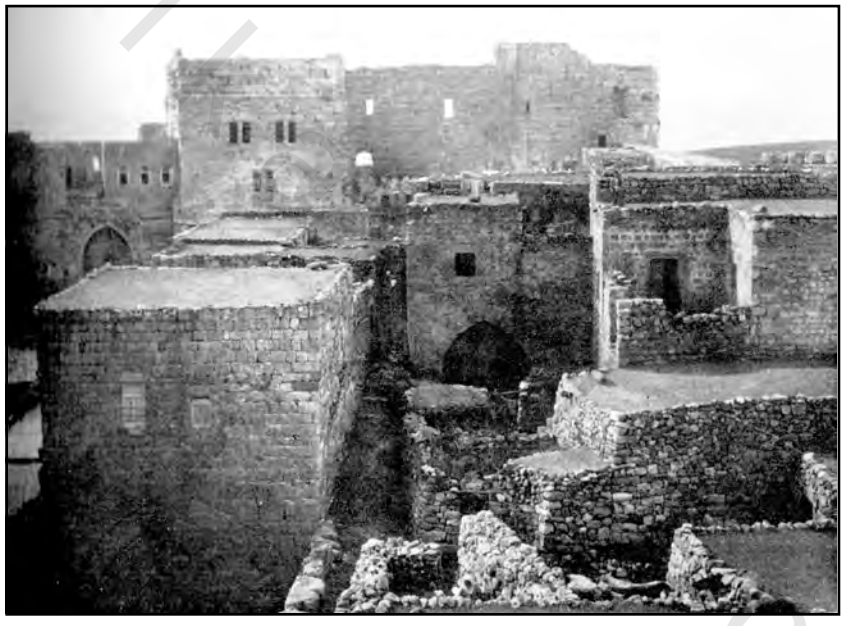

٩٨ ـ قلعة الحصن ـ داخل الحصن ـ

وكانت قد درست في مدرسة إرسالية أجنبية في طرابلس. ولم ينقض وقت طويل على جهلي أنها كاتبة مؤلفة، وأن عملها العظيم كان ترجمة كتاب «آخر أيام بومبي» إلى اللغة العربية. كانت زوجة القائم مقام شابة بخدين تفاحيين، وكان يمكن أن تكون جميلة لولا أنها بدينة على نحو غير طبيعي.

كانت زوجته الثانية وقد تزوجها قبل شهر أو شهرين فقط، بسبب وفاة زوجته الأولى أم أطفاله، كانت خجولة جداً؛ لأنه مضى بعض الوقت قبل أن تغامر وتحرك شفتيها بالكلام بحضوري، ولكن الست فريدة قامت بسد الفراغ فتدفقت بالحديث بلسان ذرب مهذار سواء بالإنكليزية أو العربية مع التأكيد بابتهاج على تصرفها الصحيح باعتبارها مسيحية، لقد كانت سيدة مرحة وذكية، وقد تمتعتُ بصحبتها أفضل بكثير من تمتعي بصحبة مضيفتي، كانت الكلمة الأولى التي قالتها الخانم كلمة ترحيب، وذلك عندما سألتني متى أُفضّل العشاء؟.

وقد أجبت بحماس بأنني أفضله بسرعة. وهكذا نهضنا بعد قليل وعبرنا ساحة موحلة ودخلنا غرفة مُدت فيها مائدة عامرة شهية، وهنا انضمت إلينا سيدة جليلة قُدِّمتْ إليّ: «صديقة جاءت ترى سعادتك». وجلسنا جميعاً لنأكل أفضل عشاء مع جمع يعتبر أفضل منكه لهذا العشاء. حساء ثخين وصحون ضخمة مملوءة باللحوم والخضار، وتوجت الوليمة بالرز بالحليب في نهاية الطعام. وعدنا إلى غرفتي بعد نهاية العشاء.

وأتوا بكانون مليء بالفحم المشتعل مع نراجيل للسيدات، وجلسنا معاً لدردشة مسائية، ورفضت السيدة العجوز الجلوس على الأريكة قائلة أنها تشعر بالراحة أكثر بالجلوس على الأرض، وجلست أقرب ما يكون للكانون ومدت يديها المعروقتين فوق النار المتوهجة. كانت ترتدي ثياباً سوداء وقد غطت رأسها بشاش أبيض لفته بشكل جيد على رأسها وجبينها، ثم لفته حول ذقنها مما أعطاها شكل رئيسة دير عجوز في أخويه دينية. كانت الرياح تعول خارج غرفة البرج، والمطر يضرب زجاج النافذة الوحيدة، وكان طبيعياً أن يدور

الحديث عن الأعمال المفزعة، وذلك النوع من الحكايا الهامة حول الجريمة والموت، وأن تروع الأشباح في تلك الغرفة المعتمة لعدة قرون وقرون.

وكانت مأساة محلية محزنة مفزعة قد وقعت على رأس القائم مقام قبل عشرة أيام؛ فقد أطلقت على ابنه النار من قِبل زميل له في المدرسة في مشاجرة أطفال ـ وقد بدت النسوة وكأنهن يرين بأنه ليس من غير الطبيعي أن يؤدي غضب ولد مفاجئ إلى مثل هذه النتيجة ـ واستدعي القائم مقام برقياً، وقد سار هابطاً الطريق الجبلي الطويل وقد قبض قلبه الخوف أن يجد الولد ميتاً وكان حزنه أكبر من أن يستطيع تحمله. هكذا قالت الست فريدة. وكورت العجوز نفسها فوق كانون النار متمتمة: «القتل هنا مثل شرب الحليب. ياالله لا إله إلا أنت».

وانفجرت عصفة ريح جديدة ملتفة حول البرج وأمسكت المسيحية بطرف الحديث..

«هذه الخانم» وأشارت برأسها باتجاه العجوز المكورة قرب النار «تعرف أيضاً ماذا يعني البكاء والحزن، فقد قتل ابنها في مثل هذا الوقت في الجبال من قبل اللصوص الذين ذبحوه بسكينة، وقد وجدوا جثته مقطعة قرب الطريق».

«إراقة الدم مثل إراقة الماء هنا» وأنت «يا لطيف!»

كان الوقت متأخراً عندما تركتني النساء، وقد عرضت إحداهن أن تقضي الليلة معي في غرفتي، ولكني رفضت بأدب وحزم.

أفقت في صباح اليوم التالي على صوت الرعد وقرع حبات البرد على مصراعي نافذتي، ولم يكن هناك سوى الإقامة أربعاً وعشرين ساعة أخرى تحت سقف القائم مقام شاكرين الله بوجود سقف نأوي تحته. واستكشفت

الحصن من نهايتيه مع قناعة كبيرة بالطفولة السرمدية التي تعيش في روح كل واحد منا. وتشعر بمزيد من المسرة في الأبراج والمعارك في القلاع أكثر من أي أثر آخر تذكاري. وقلعة الحصن كبيرة إلى درجة أن نصف سكان القرية يسكنون في أقبية الحصن، على حين تقطن الحامية العسكرية في الأبراج العلوية. وترتفع أبراج الحصن من خندق داخلي بني داخل الأسوار الخارجية وهي الأسوار التي عبرناها في الليلة قبل الماضية تحت الرواق المقبى، ويقيم لحَّام الحصن بجانب بوابة السور الداخلي، ويذبح كل يوم ماشية على العتبة، ويضطر أولئك الذين يريدون الخروج أن يخطوا فوق بحرة من الدماء، كما لو كانت أضحية بربرية يجب أن تنجز عند البوابة كل يوم.

٩٩ ـ نوافذ قاعة الطعام

يحتوي الحصن على كنيسة صغيرة حولت الآن إلى مسجد، وثمة قاعة طعام لها نوافذ على الطراز القوطي قد سدت آثارها بجدار من الحجارة لوقاية الساكنين داخلها من البرد. ويشكل البرج الذي أويت إليه الجزء الأعلى من الدفاعات، ويرتفع فوق ثلاثة طوابق من الأقبية، وينطلق منه ممر ضيق رأساً باتجاه قمة السور، ويقود إلى غرفة كبيرة رائعة يوجد وراءها برج دائري يحتوي على غرفة مستديرة مسقوفة بقبة رباعية الأضلاع، وتمتاز هذه الحجرة بنوافذ بارزة مع حلى معمارية على شكل وردة، وحلى أخرى بارزة حول الأقواس، كان الحصن مركزاً للفرسان، وتأريخاً للحروب الصليبية. كان يخص الفرسان الاسبيتارية، وقد جعله رئيسهم الكبير مقراً دائماً له، وقد طردهم منه سلطان مصر الملك الظاهر، ثم أعاد ترميمه ونقش تخليد انتصاره على البوابة الرئيسية.

إنه واحد من أعظم مجموعة من الحصون تقف شاهدة على اللخبطة الغريبة للتعصب النبيل، تعصب وطموح وجريمة ارتبطوا جميعاً ليشكلوا تاريخ الحروب الصليبية، صفحة لا تستطيع الأمة المسيحية حيثما نظرت إليها دون أن تشعر بالخجل، ولا تقرأ عنها دون أن تشعر بالشفقة العفوية المنتزعة من الشجاعة العبثية؛ وذلك أن الموت من أجل سبب لا قيمة له هو قمة الهزيمة.

ينتمي حصن الكرك على نحو قريب جداً إلى الهندسة العسكرية في جنوبي فرنسا، ولذلك فهو يحمل آثار تأثيرات شرقية حيث إن نظامه العظيم غير معين، مع أن فرسان المعبد طبقوه على نحو أكثر كمالاً من الاسبيتارية. ومثل القلاع العربية المعاصرة لها تزداد سماكة الأسوار كلما اتجهت نحو الأساسات أو القاعدة من أجل الوقاية من هجوم اللغامين، ولكن الأبراج

الدائرية ببروزها الكبير خارج خط السوار تحمل بشكل كلي ملامح فرنسية، وقد قيل إن الصليبيين قد وجدوا قلعة على قمة الهضبة واستولوا عليها من المسلمين، ولكني لم أشاهد أثاراً أقدم من الآثار الصليبية تدل على هذا الزعم، إن قسماً من الأبنية الحالية متأخر عن أيام الصليبيين. فعلى سبيل المثال هناك بناء ضخم قرب الخندق الداخلي نُقشت على جدرانه صور أسود لا تشبه نقوش الأسود السلجوقية.

بعد الغداء نزلت أخوض عبر الهضبة الموحلة إلى القرية، وذهبت إلى بيت الست فريدة وزوجها، وكان عندهم زوج آخر من المسيحيين، كان الرجل أمين صندوق في الحكومة، وتحدث الرجال حول ظروف الفقراء في سوريا. قال المساح: لا أحد يموت في سوريا من الجوع، ثم تابع وأخذ يحسب دخل الفلاح المتوسط سنوياً. قال: قد يكسب أفقر الفلاحين ما بين ألف إلى ألف وخمسمائة قرش سنوياً (تعادل من ٧ إلى ١١ ليرة إنكليزية ذهبية)، ولكنه ليس بحاجة كبيرة إلى النقود، ففيما عدا ضريبة الرأس، وشراء بديل ليخدم عنه خدمة العلم لا يوجد أوجه صرف أخرى جدية، فاللحم ترف غير معروف، وعنبر السمن يكلف ما بين ثمانية إلى عشرة قروش على الأكثر. وهو يساعد على جعل البرغل وغيره من الحبوب مستساغاً أكثر ولا يتم استهلاك العنبر قبل عدة شهور، وإذا قلَّ السمن وقلَّ البرغل أو الحبوب فليس على الفلاح إلا الخروج إلى الجبال أو إلى الأراضي البور التي ليس لها مالك وجمع الأوراق الخضراء الصالحة للأكل، أو استخراج الجذور، وهو يبني بيته بيديه وليس هناك تجهيزات أو أثاث في داخله، والأرض التي يبني عليها لا تكلف شيئاً، أما بالنسبة للثياب، فماذا يحتاج؟ زوج من قمصان الكتان وعباءة من الصوف كل

سنتين أو ثلاث سنين وكوفية قطنية كغطاء للرأس. ونادراً ما يُترَك المسنّون والمرضى دون عناية، لأن أسرهم تتولى ذلك إذا كان لهم أسرة، فإذا لم يكن لهم أقارب فمن الممكن أن يُؤمّنوا معيشتهم عن طريق الشحادة؛ لأنه لا يوجد في الشرق من يرفض إعطاء شيء ما عندما يُسأل، رغم أن الفقراء نادراً ما يعطون نقوداً، والفلاحون الذين يملكون أراضي نادرون جداً، إنهم يعملون لقاء حصة لدى الملاّكين الأغنياء، والدنادشة هم الملاّكون الرئيسيون للأراضي الواقعة حول قلعة الحصن وقد جاؤوا من طرابلس، وحتى أمد قريب لم تكن الحكومة تشغل الحصن، وكان ملكاً لأسرة من الزعبية التي استمرت تملكه لمدة مئتي عام، ولا تزال تقيم في بعض الغرف على السور الخارجي.

وتدخل هنا أمين الصندوق قائلاً:

«حتى الإسلام يكرهون الحكومة العثمانية، وهم يفضّلون في النهاية حكم الأجانب حتى ولو كانوا كفاراً، وهم يفضلون الإنكليز؛ وذلك لأن التقدم الذي حدث في مصر يضغط كثيراً على أذهان السوريين»[1].

في ذلك المساء أرسل لي القائم مقام رسالة يسأل فيها فيما إذا كنت أرغب بأن أتعشى وحدي أو أقبل دعوته وزوجته للعشاء عندهما. واخترت الخيار الأخير، وبالرغم من رغبته بأن يكون مثال المضيف الجيد فقد كان بَيِّن التأثر والحزن وبقي صامتاً في الفترة الأولى من الجلسة أثناء العشاء، حتى طرقنا موضوعاً سحبه من ذكرى أحزانه.

(١) الحقيقة أن بريطانيا أوقفت حركة التطور التي بدأها محمد علي باشا في مصر عندما احتلت مصر عام ١٨٨٢ ولم تكن هي أبداً سبب الازدهار هناك. وتذمُّرُ المواطنين من الحكم طبيعي عند كل الشعوب، ولكن هذا لا يعني أنهم يفضلون حكم الأجنبي كما زعمت المؤلفة على لسان المسيحي المنافق. (المترجم)

١٠٠ ـ أسوار الحصن الداخلي

وخرج الموت القوي ليساعدنا مع الكلمات على شفاههم، هذه الكلمات التي جبرت القلوب الكسيرة لأجيال الإنسانية. كان القائم مقام على معرفة جيدة بالأدب العربي، وهو يحفظ الشعراء الجاهليين عن ظهر قلب، وعندما اكتشف أنني أمتلك بعض المعرفة في هذا المجال، وأنني أُكنُّ الكثير من الحب والإعجاب للشعر الجاهلي بشكل عام.

أخذ يستشهد بأبيات متتالية لهذا الشاعر أو ذاك، ولكنه في ذوقه الشعري كان أميل للشعر الغنائي الأكثر حداثة، وكان أبو الطيب المتنبي شاعر القرن العاشر الميلادي هو شاعره المفضل، كانت بعض النار القديمة ما تزال تدخن في شعر المتنبي، وقد اشتعلت مرة أخرى عندما أنشد القائم مقام قصيدته المشهورة التي يتحدث فيها عن متعة الشباب:

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه

ولو أن ما في الوجه منه حراب

لها ظفر إن كل ظفر أعده

وناب إذا لم يبق في الفم ناب

يغير مني الدهر ما شاء غيرها

وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

وللخـــود منـي ســـاعـــة ثم بيننا

فـــلاة إلى غـــيـــر اللقـــاء تجـــاب

تـــركـــنـــا لأطـــراف الـــقـــنـــا كـــل لـــذة

فـلـيـس لـنـا إلا بـهـن لـعـــــــاب

أعـــز مكان في الدنا ســـرج ســـابح

وخـــيـــر جليس في الأنام كـــتـــاب

وتابع القائم مقام: «وسعادتك يجب أن تعطي للبيت الأخير كل اعتبار».

عندما عدنا إلى غرفة الضيوف سألني فيما إذا كان يستطيع أن يقرأ آخر قصيدة له نظمها بطلب من طلاب الكلية الأمريكية في بيروت (أكثر المؤسسات شهرة من نوعها في سوريا) في احتفالهم السنوي الذي كانوا قد أوشكوا على إقامته، وقرأ في البداية رسالة الطلاب التي كُتبتْ بأسلوبٍ منمق. ثم أوراق مخطوطته. وألقى قصيدة بأسلوب خطابي مشدِّداً على الطريقة الشرقية متوقفاً ما بين فترة وأخرى ليوضح معنى جزلاً لتشبيه مجازي أو استعارة أو ليقدم صورة لبيت صعب.

كان يتحدث في قصيدته عن العلم، وأنهاها على نحو غير منطقي بمدح باعث على الغثيان للسلطان وهي رسالة كان فخوراً بها جداً. وبقدر استطاعتي على الحكم أقول: إنها ليست قصيدة جيدة جداً.

ولكن ماذا في ذلك؟ لا يوجد تعزية عن المصيبة التي تصيب الإنسان مثل الكتابة.

١٠١ ـ فلاحون عرب

وخلال أقل من ساعة نسي القائم مقام مصيبته ودخل في ساحات ليس فيها موت ولا نواح، وواسيته ومدحته بعبارات مناسبة. وضحكتُ عندما وجدت نفسي أتكلم نفس الهراء المناسب في اللغة العربية مثلما اعتدنا أن نفعل باللغة الإنكليزية، وخلت نفسي جالسة في قاعة استقبال في لندن بدلاً من وجودي بين جدران عارية في برج صليبي، والعالم بعد كل شيء مصنوع من نفس المادة في كل مكان.

كانت ماتزال تمطر في صباح اليوم التالي، ولبست ثيابي وأفطرت بمعنويات هابطة. ثم كما لو كان الأمر حرك بعصا سحرية انقشعت الغيوم وانقطع المطر وانطلقنا في الساعة السابعة والنصف تحت شمس مشرقة رائعة، في أسفل منحدر الهضبة التي تربض فوقها قلعة الحصن ثمة دير إغريقي في وسط أيكة زيتون، وعندما وصلت باب الدير ترجلت عن جوادي

ودخلت لأحيي رئيس الدير، ولاحظت متعجبة، لقد كان من معارفي القدماء، وقد سبق وقابلته في دير معلولا قبل خمس سنوات عندما كنت عائدة من تدمر، وكانت هناك بهجة عظيمة لهذه الصدفة السعيدة، ثم أكل الكثير من المربى وشرب الماء والقهوة احتفالاً بهذه المناسبة.

وكان قد أعيد بناء الدير فيما عدا كنيسة صغيرة تشبه سرداباً تحت الأرض التي قالوا أنها تعود إلى / ١٢٠٠ / ألف ومئتي سنة من الآن. وقد تم تدعيم القبة بزوج من الأعمدة الرخامية كسرت تحت الرأس وتم إعادة بناؤها داخل الجدار، وهي خطة غريبة أكثر منها جذابة، كانت تيجان الأعمدة على شكل رؤوس الزنبق من طراز بيزنطي، وبجانب حاجز المذبح قطعة من الخشب الحديث محفورة بشكل جيد، كما أن هناك بعض الآجر الفارسي الجميل، ورأيت في الجدار الغربي للدير باباً ضيقاً ما بين العضادتين من الممكن أن يضيق فيما بينهما إذا حاول أي إنسان غير نقي القلب أن يمر. قال رئيس الدير، ولم أغامر بسمعتي بمحاولة المرور في الممر.

وركبنا عبر واد ضحل مشجّر مليء بالأزهار، ووصلت أشجار الفاكهة إلى مرحلة التبرعم وأورقت زهور صريمة الجدي [1]، ووقفنا للغداء في بستان صغير تحت سنديانة متبرعمة. كانت تنبسط أمامنا منطقة مسيرنا الصعبة لذلك اليوم، واستطعنا رؤية قلعة صافيتا على التلة المقابلة، ولكن كان هناك نهر فائض بيننا، والجسر الواقع فوقه جرفته المياه، وأفادت الأخبار أن من المستحيل قطع المخاضة، وعندما وصلنا شواطئ الأبرش لاحظنا النهر مندفعاً في مجراه العريض مشكلاً تياراً متواصلاً من المياه المتدفقة التي لا يمكن

(١) شجيرة أزهار غنية بالرحيق.

للبغال المحمّلة المرور عبرها أبداً، وركبنا حوالي ساعتين منحدرين مع مجرى النهر ووصلنا في الوقت المناسب إلى الجسر الثاني، جسر الوادي الذي كان قد وصل إلى آخر مرحلة من التداعي حيث كانت القنطرة الوسطى بالكاد متماسكة.

كانت الهضاب خلف الضفة الأخرى من النهر مغطاة بأشجار قصيرة، وقد انتشر بينها السوسن الجميل منتصباً رافعاً تويجاته الزرقاء، واكتسب المنظر حيوية أبعد بالمرور المستمر لنصيريين مرتدين الثياب البيضاء متجهين أسفلاً نحو الجسر.

كان معي شرطي كردي اسمه عبد الحميد الذي كان يعرف الجبال وسكانها على نحو جيد وعلى الرغم من أنه كان محمدياً [1] إلا أنه لا يحمل أي شعور معاد للنصيرية الذين كان يجدهم دائماً أناساً طيبين، وكان كل واحد منهم يحييه بمودة عندما كان يمر بنا، وقد أخبرني أن جماعة الثياب البيضاء كانوا في طريقهم إلى مأدبة على روح شيخ كبير اشتهر بالصلاح والتقوى وقد مات منذ أسبوع، وتقام المأدبة في هذه المناسبة بعد يومين من الوفاة، وبعد أن يأكل الضيوف طعامهم يدفع كل رجل حسب قدرته المالية لأسرة المتوفى مبلغاً من المال يتراوح ما بين ليرة إلى خمس أو ست ليرات [2]. إن اكتساب سمعة حسنة عند المشايخ في جبال النصيرية أمر جيد مثل التأمين على الحياة عندنا.

(١) تقصد المؤلفة سنياً.

(٢) إن الشرطي يبالغ بدون ريب فالوضع الاقتصادي بالنسبة لمعظم الناس في ذلك الزمان لا يمكنهم من دفع مبلغ كبير كهذا. وخصوصاً بين الطائفة العلوية (النصيرية)، والأصح أن يكون المبلغ يتراوح ما بين قرش إلى خمسة أو ستة قروش، وربما أقل. (المترجم)

لم نصل صافيتا إلا في الساعة الرابعة بعد الظهر بسبب دورتنا الطويلة، ورفضت ضيافة ضابط الشرطة، ونصبت مخيمي على مرتفع من الأرض خارج القرية، والحصن الذي رأيناه من بعيد هو كل ما تبقى من الحصن الأبيض الخاص بفرسان المعبد، وهو يقع على قمة هضبة، وتتجمع القرية متلاصقة تحت قدميه، ومن الممكن رؤية البحر الأبيض المتوسط والساحل الفينيقي الشمالي إذا وقفنا في أعلى نقطة فيه، وشاهدت عملة معدنية فينيقية بين العملات القديمة التي قُدمت إليّ لشرائها، كما شاهدت قطعة معدنية برونزية صغيرة نُقش عليها وجه إله فينيقي.

وقد تكون صافيتا قاعدة تجارية داخلية مهمة لهذه الأمة من التجار، وقد بني الحصن بمهارة هندسية مدهشة، وهو لا يحتوي على القاعة الكبيرة المقببة أو قاعة الطعام التي يتوقع أن يراهما الإنسان، دائماً كنيسة كبيرة هي التي تشغل قلب القلعة، وكانت الصلاة قائمة عندما دخلنا وقد توردت خدود المصلين بأشعة الشمس المؤذِنة بالغياب، والتي كانت تدخل من أبوابها الغربية، ومعظم سكان صافيتا مسيحيون، وكثير منهم يتكلم الإنكليزية بلهجة أمريكية اكتسبوها عندما ذهبوا إلى الولايات المتحدة ليجمعوا ثرواتهم الصغيرة.

وقد اكتسبوا بجانب اللهجة الأمريكية إلفة ورفع كلفة في التخاطب لم أُسرّ لها كثيراً، فاقدين بعض سلوكهم المهذب الذي نشؤوا عليه. ورافقني ضابط صف الشرطة المهذب عبد المجيد أثناء تجوالي في البلدة منقذاً إياي من كنائس المسيحيين المتأمركين بارماً شاربيه العسكريين القاسيين في وجه الأطفال الصغار الذي فكروا بالسير وراءنا، متْبِعاً تراجعهم بأظرف ألفاظ التوبيخ المنتقاة التي كان لي شرف سماعها أو الاستماع إليها.

وفي وقت متأخر من المساء أعلن عن وصول زائرين تبين أن أحدهما ضابط، والآخر موظف أرسلهما قائم مقام دريكيش للترحيب بي ودعوتي، والذهاب بي لزيارة قريته، وسرنا نحن الثلاثة في الصباح الباكر يتبعنا جنديان يسيران خلفنا بطريق ملتو عبر التلال.

وبعد ركوب ساعتين وصلنا إلى قرية مليئة بكروم الزيتون حيث تقع دريكيش على المنحدر فوقها، ووجدنا عند أول أجمة زيتون قبل مدخل القرية ثلاثة رجال مهمين، يرتدون معاطف سوداء وطرابيش واقفين لاستقبالنا، وركبوا جيادهم حالما اقتربنا منهم وساروا معنا، وبدأ عددهم يتضخم أثناء صعودنا شوارع القرية حتى أصبحوا حوالي ثلاثين خيالاً عندما وصلنا إلى بيت القائم مقام، واستقبلنا القائم مقام عند باب منزله مرتدياً المعطف الأسود الطويل وبأسلوب احتفالي، وقادني إلى غرفة استقباله حيث شربنا القهوة.

وفي هذه الأثناء وصلت مجموعة الخيالة المكونة من ثلاثين رجلاً من وجهاء البلدة، وعندما انتهى الاستقبال الرسمي أخذني القائم مقام إلى بيته الخاص، وقدمني إلى زوجته، وهي سيدة دمشقية رائعة حيث تحادثنا قليلاً. وأصبحتُ على معرفة جيدة به، كان اسمه رجا بك العابد، ويدين بمنصبه الحالي إلى أنه ابن عم عزت باشا حيث لا يوجد أي رجل ينتمي إلى أسرة هذا الرجل المهم إلا وكان له منصب قائم مقام على الأقل.

وقد يكون رجا بك قد ترقى في السلم الوظيفي بدون مساعدة، فهو رجل يتمتع بمواهب استثنائية جيدة، معطاء عن سعة، مع الذكاء الحاد الذي يتميز به السوريون، وأسرته التي ينتمي إليها عزت باشا من أصل عربي، ويدعي عدد منهم الانتماء إلى قبيلة الموالي النبيلة التي ينتسب شيوخها إلى هارون الرشيد.

وعندما تُقابِل عزت باشا من المستحسن أن تهنئه على انحداره من هذا الخليفة العظيم، مع أنه يعرف ويعرف أنك تعرف أن الموالي ينكرون هذا الإدعاء مع الازدراء، ويقولون: إنه ينحدر من أحد عبيدهم كما يدل على ذلك اسمه (عبد يعني في العربية رقيق)، وسواء أكان أسلافه عبيداً أو أحراراً فقد ارتقى عدد من أسرة العابد على نحو بارع بحيث وضعوا أقدامهم فوق رقاب الأتراك، وسوف يبقون في وضعهم الخطير هذا حتى يهوي عزت باشا من عليائه [1]، وقد اتخذ وجه رجا بك طابعاً جدياً عندما ألمحت إلى صلته العالية، ولاحظ أن هذه القوة التي تتمتع بها أسرته قضية خطيرة، وكيف أنه سيكون سعيداً لو انسحب إلى مركز أقل ظهوراً من منصب القائم مقام، ومن يعرف فيما إذا كان الباشا نفسه يفضل أن يستبدل بمتع إستنبول منصباً أكثر تواضعاً وأكثر أماناً. وهو افتراض له أساس معقول كما استطعت أن أعرف بيسر، حيث إن عزت باشا إذا كانت الشائعات صحيحة قد حصل على كل ما يتوقع الإنسان أن يحصل عليه في السنتين التي كان فيها قريباً من العرش، وأكدتُ للقائم مقام أنني سوف أعدّ زيارتي لتقديم احترامي للباشا شيئاً أساسياً عندما أصل إلى إسطنبول، وهي خطة حملتها في النهاية بنجاح بحيث يمكن أن أعتبر نفسي الآن ضمن دائرة نفوذ عزت كواحدة ممن يتمنون أن يتمتعوا بدوام صداقته.

(١) الحقيقة أن أسطورة انتماء أمراء الموالي إلى هارون الرشيد قصة غير صحيحة على الإطلاق. وهم يزعمون أن جعفر البرمكي قد تزوج من العباسة أخت الرشيد سراً، وأنها ولدت منه ولداً، هُرِّبَ إلى البادية أثناء نكبة البرامكة، وأنهم بالتالي من سلالة هذا الولد، والحقيقة أن هذه القصة غير صحيحة على الإطلاق، وشيوخ الموالي في الحقيقة من طيء وهم من أحفاد عيسى بن مهنا وهم أبناء عمومة الفضل مشايخ الفاعور في حوران. (المترجم)

في هذا الوقت أصبح الغداء جاهزاً، وانسحبت الخانم وجاء الضيوف الآخرون، وكانوا أربعة، الضابط والقاضي وآخران، كانت مائدة عامرة ووجبة ممتعة. ودار الحديث على نحو مرح على المائدة، بحض وتشجيع من القائم مقام الذي كان يتناول موضوعاً إثر آخر بسهولة مصقولة لإنسان يعيش العالم.

وعندما كان يتكلم لاحظت مرة أخرى جمال ورِقّة اللهجة العربية السورية عندما تدور على لسان المثقفين، وكان كلام القاضي مقيداً بسمعته كمعلم، فأجبر نفسه على التقيد بلغة القرآن الميتة [1].

وقبل أن أذهب أوضح القائم مقام أنني مازلت ضيفته لليلة المقبلة، وقال: إنه قد علم أنني أرغب أن أخيّم عند آثار معبد سليمان، وإنه قد أرسل قافلتي إلى هناك تحت حراسة ضابط، وإنه أرسل أيضاً خدماً ومؤناً مع ابن عم له ليسهر على راحتي، وكان علي أن آخذ الضابط وراغب أفندي الحلو وهو أحد المدعوين إلى الغداء معي، وإنه يتمنى أن أكون راضية.. وشكرته كثيراً جداً على لطفه قائلة: إنني قد تأكدت من أصله العربي من خلال كرمه.

كان طريقنا يصعد قمة جبال النصيرية ويسير على طول خط القمم، وهو طريق صخري جميل، كانت الهضاب منحدرة جداً وعارية من كل شيء عدا الأعشاب والزهور، ماعدا أماكن متفرقة هنا وهناك على القمم الأكثر

(١) الحقيقة أن لغة القرآن ليست ميتة، بل هي أساس بقاء العرب كعرب ووحدتهم، وقد كان المستعمرون وأعوانهم يشجعون دائماً اللهجات العامية والكتابة بها كوسيلة من وسائل المساعدة على تمزيق الوطن العربي إلى دويلات خاضعة للاستعمار، فرأينا من يقترح تبديل الحروف العربية بحروف لاتينية، ومن يتحدث عن وجود لغة لبنانية وأخرى مصرية وأخرى عراقية ... إلخ، وقد ثبتت لغة القرآن لكل هذه الحملات ونحن نشهد الآن مع انتشار العلم تراجع اللهجات العامية لحساب الفصحى. (المترجم)

ارتفاعاً، حيث توجد مجموعة من أشجار السنديان الضخمة محيطة بقبة بيضاء ترى من بعيد، وهي تلتمع بأشعة الشمس النافذة من خلال الأغصان، وهذه القبب هي مزارات أولياء أو مشايخ النصيريين، وليس عند النصيريين مساجد ولا كنائس، ولكنهم يبنون على كل قمة جبل مزاراً يشير إلى وجود قبر، ومع أن هؤلاء الأموات المتوجين عالياً قد غادروا عالم الأحياء لم يتوقفوا عن أداء أعمالهم الخيّرة، حيث إنهم يُعدون حُماة الأشجار التي تحيط بقبورهم التي تبقى وحدها سليمة لا تُمس.

يقع حصن سليمان في رأس واد عال في الجبال، وينبثق نبع صاف من تحت أسواره، ويجري حول منبسط من الأرض طبيعي من الطرفاء الخضراء حيث نصبنا مخيمنا عندها، وترتفع الهضاب على نحو مدرج خلف المعبد وينحدر الوادي بشدة تحته، والآلهة التي كرست لها تتمتع منفردة بجمال خرائب مزارها. وقد غطى اللبلاب الأسوار المحيطة بالمبنى كما تفتحت أزهار

١٠٢ ـ معبد حصن السليمان

البنفسج الذي نبت في صدوعها، كان ثمة أربع بوابات تقود إلى الساحة التي يقع المعبد في وسطها، وعلى مسافة قصيرة جنوب المصلى كانت تقع أساسات المذبح، وهي تحوي كتابة يونانية ظريفة تروي كيف أن قائد مئة روماني يدعى ديسيموس من فيلق فلافيان قد قدم مع ولديه وابنته مذبحاً من النحاس إلى إله بيتو كايس وثبته على منصة بناء في سنة ٤٤٤، والتأريخ بالتقويم السلوقي وهو يوافق ١٣٢ بعد الميلاد، ومن المؤسف أن ديسيماس لم يجد ضرورة لذكر اسم الإله الذي بقي غير محدد في كل النقوش.

والبوابة الشمالية مثلثة الأبواب، تقع مقابلة لباحة ثانية مستطيلة مغلقة تحتوي على معبد صغير من الحجر الصلب في الزاوية الشمالية الشرقية، ورواق نصف دائري من حرم مقدس في الجدار الشمالي، وربما كان هذا الملجأ الأخير هو مقر الإله المجهول؛ لأن هناك درجات تصعد نحوه وإلى قواعد الأعمدة على الجانبين، وكما هو الحال في بعلبك فإن المسيحيين كرَّسوا قدسية المكان ببناء كنيسة فوقه، التي كانت تقع في الساحة الثانية على زاوية قائمة من الحرم الشمالي. والحجارة التي بنيت فيها أسوار كلا الساحتين ضخمة جداً، وقد بلغت أطوال بعض الحجارة ما بين ستة إلى ثمانية أقدام. النقوش التزيينية أبسط بكثير من تلك الموجودة في بعلبك، ولكن بعض التفاصيل الحميمة تذكر بالأخيرة حتى أنني أشعر بالإغراء بأن أخمن أن نفس المهندس قد عمل في المكانين، وأنه هو الذي نحت الجهة السفلية لكثبان بيتوكايس، النسور والملائكة التي زين بها عتبة معبد جوبتر. وقد قال الفلاحون: إنه كان هناك أقبية عميقة تحت المعبد والساحة، ويجب أن تكون المنطقة غنية جداً للاستكشاف الجيد، علماً أن أي معرفة إضافية جديدة لن تعزز جمال المزار العظيم في التلال.

لم يخرج القائم مقام عن حرف واحد من وعوده، مذبحة كاملة من الخراف والدجاج قدمت لنا ولأصدقائي، فقد أولم لي وللجنود وللبغالة كل في دوره. وتوهجت نار المخيم مضيئة في هواء الجبل الحاد الصافي، واكتسبت السماء حياة بنجومها الساطعة، وقرقر الجدول متدفقاً فوق الصخور وكل شيء ما خلا ذلك كان صامتاً لأن كلبي كورت الذي كان يملأ الجو نباحاً ضاع، تاه في مكان ما بين التلال وقد ذهب ولن يعود، وتفجعت لفقده ولكنني أحس بالأمان ربما أكثر من أي وقت مضى.

وفي اليوم التالي ركب معنا كل أصدقائي والجنود حتى حدود منطقة دريكيش، وهناك تركونا بعد أن أخرجوا نصيرياً تعيساً من منزله في عين الشمس وأمروه بمساعدة الشرطي الذي سوف يرافقنا على إيجاد أفضل طريق صخري إلى مصياف. وبعد أن ذهبوا استدعيت ميخائيل وسألته عن رأيه في يومنا الممتع.

واتخذ وجهه التعبير العربي المعبر عن الإزدراء وقال: «تظنين جنابك بدون شك أنك كنت ضيفة على القائم مقام، أنا سوف أخبرك على مَنْ كنتِ ضيفة، هل رأيت أولئك الفلاحين النصيرية، الفلاح البائس الذي باعك القطع الأثرية في الخربة هذا الصباح، هؤلاء هم مضيفوك، كل ما قُدّم لكِ أُخذ منهم بدون مقابل، هم الذين جمعوا الحطب لإشعال النار، والدجاج دجاجهم والبيض بيضهم والخِراف التي ذُبحت أُخذت من قطعانهم، وعندما رفضتِ أن تأخذي أكثرَ قائلةً: لقد حصلت على كفايتي أخذ الجنود خروفاً آخر وحملوه معهم،

وكل ما أخذه الفلاحون كان المتاليك [1] التي أعطيتِهم إياها ثمناً للنقود القديمة التي اشتريتها منهم. ولكن إذا سمعت مني» تابع ميخائيل على نحو

١٠٣ ـ البوابة الشمالية في حصن السليمان

غير منطقي «أنت تستطيعين أن تسافري عبر أراضي الأناضول كلها دون أن تخرجي ربع مجيدي من محفظتك؛ تذهبين من قائم مقام إلى قائم مقام، وفي كل مكان سوف يستضيفونك، وهذا الطراز من الضيافة لا يستلزم دفع نقود، هم يرغبون أن تقولي سعادتك بحقهم كلمة طيبة عندما تصلين إلى إسطنبول.

(١) (المتليك يجمع متاليك والمجيدي يجمع مجيديات) عملتان كانت متداولتان في العصر العثماني. (المترجم)

ستنامين في بيوتهم وتأكلين على موائدهم مثلما حدث عندما سافرت مع سايكس».

ولكن إذا كان عليّ أن أتحدث عن كل ما قاله ميخائيل عن رحلته مع مارك سايكس فلن أذهب أبداً إلى مصياف.

كان اليوم يوماً يستحق الذكر بما لاقينا فيه من صعوبة الطريق وبجمال الأزهار في جنباته، فقد نمت على قمم الهضاب، زهور بخور مريم الألبية، والزعفران الأصفر والأزرق والبرتقالي، ومنحدرات مغطاة كاملاً بزهور الربيع البيضاء، ونبتت في الأماكن الأكثر انخفاضاً أزهار السوسن والنرجس، وزهور السحلبية السوداء والخضراء، والسحلب الأرجواني، وأنواع متعددة من شقائق النعمان البتلة الزرقاء في أدغال من الآس.

وعندما وصلنا أكثر المنحدرات انخفاضاً أرسلت النصيري السيئ الحظ إلى بيته بعد إعطائه مكافأة التي كانت كبيرة أكثر مما كان يتوقع بالنسبة لمغامرة أمره بها ضابط من الجيش.

عند الثالثة وصلنا مصياف وعسكرنا عند أقدام الحصن، إن مصياف الآن مخيبة للأمل، هناك في الواقع حصن كبير، ولكن حسب تقديري هو حصن عربي البناء، وكذلك السور المحيط بالمدينة، إن الطريق الروماني الآتي من حماة يمر في مصياف، ويجب أن يكون هناك آثار رومانية في المدينة، ولكني لم أر شيئاً. وقد سمعت عن حصن في أبو قبيس على قمة إحدى الهضاب، ولكن قيل: إنه يشبه حصن مصياف، فقط أصغر، ولم أصعد إليه. ولقلعة مصياف سور خارجي وحصن داخلي يتم الوصول إليه عبر ممر مقبى يشبه ذلك الموجود في قلعة الحصن، وقد دُمّر الحصن الداخلي القديم تماماً،

١٠٤ ـ بوابة المدينة في مصياف

واستُبْدِل به قاعات وغرف تعوزها المتانة بناها الإسماعيليون منذ بضعة مئات من السنين عندما احتلوا المكان. هكذا أخبرني رجل عجوز من أهالي مصياف يدعى الأمير مصطفى ملحم الذي ينتمي إلى نفس الطائفة وقد عمل كدليل لي، وقد قال: إن أسرته أقامت في الحصن لمدة سبعمئة أو ثمانمئة سنة. ولكن من المحتمل أن يكون كاذباً، مع العلم أن الإسماعيليين قطنوا مصياف منذ هذه المدة. وقد بني في البوابة الخارجية تيجان وأعمدة يجب أن تكون قد

أخذت من بعض الأبنية البيزنطية، وبوجود بعض الكتابات العربية منقوشة على جانب البوابة الثانية وقد سجل عليها أسماء بناة ذلك القسم من القلعة، ولكن الكتابة مكسرة كثيراً. وقد أخبرت فيما بعد أنه كان عليّ أن أزور مكاناً يدعى دير الصليب حيث يوجد كنيستان وحصن صغير، وهو غير محدد في الخريطة، ولم أسمع شيئاً عنه إلا بعد أن أصبح خلفي بمسافة كبيرة [1]. وقد شاهدت قسماً من الرصيف وهو الطريق الروماني عندما سافرت في اليوم التالي إلى حماة. وثمة جدار خشن البناء مبني بحجارة ضخمة، مبني على تل ملفت للنظر عند الجسر الواقع على نهر الساروت على مسيرة أربع ساعات ونصف من مصياف.

١٠٥ ـ تاج عمود في مصياف

وقد وجد ميخائيل قطعة نقود رومانية في أثلام الحقل الواقع عند سفح التل. ومن النهر كان أمامنا ساعتان ونصف من السفر الممل حتى نصل إلى حماة، وقد ذهب هذا الملل بوجود عجوز تركي ظريف يعمل في دائرة البرق وقد التحق بركبنا عند الجسر، وقد أخبرني بقصته بينما كنا راكبين بجوار بعض: «أفندم.. موطن أسرتي قرب صوفيا، أفندم.. أنت تعرفين المكان؟ ما شاء الله، إنها منطقة رائعة ! حيث كنت أسكن كانت الأرض مغطاة بالأشجار، أشجار مثمرة وصنوبر في الجبال، وحدائق من الورد في السهل، أفندم..

(١) الحقيقة أن دير الصليب يقع على الطريق الواصل بين مصياف وحماة، وهو لا يبعد عن الطريق العام أكثر من كيلو مترين، ولا يحتاج الخيَّال إلى أكثر من نصف ساعة ركوب لكي يصل إليه، ولعل من حدثها عن دير الصليب لم يحدد مكانه بدقة. (المترجم)

العديد منا جاء إلى هنا بعد الحرب مع المسكوب؛ لأننا لم نقبل أن نعيش تحت أي يد إلا يد السلطان، وقد عاد كثيرون بعد أن جاؤوا. أفندم؟ ما هو السبب؟ لم يريدوا أن يسكنوا في بلاد ليس فيها أشجار. بالله، لم يستطيعوا تحملها».

عند هذا الحد من الحديث وصلنا حماة.

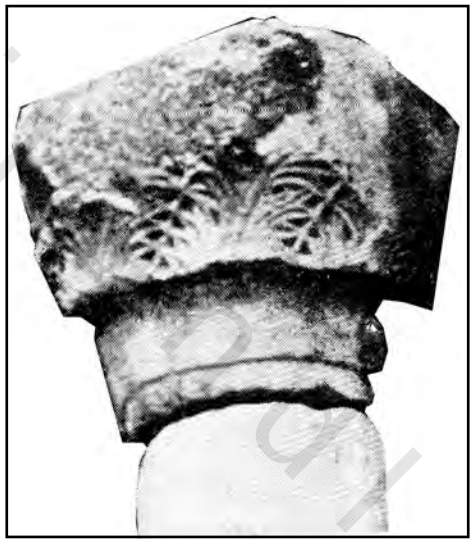

١٠٦ ـ تاج عمود في مصياف